حوليات آداب عين شمس (عدد خاص ٢٠١٨)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

التقديم والتأخير في أسلوب النداء
دراسة في الدلالة التركيبية في أحاديث السنن الأربعة

عيس عثمان محمد*

ماجستير في اللغة العربية – نحو وصرف – جامعة عمر المختار

المستخلص

هذا البحث يتناول مسألة من مسائل النداء وهي التقديم والتأخير بين عناصره التي يقوم عليها: «حرف النداء والمنادى» والأمر المنادى من أجله «جملة النداء»، وقد تتبع البحث هذه المسألة بالتحليل والتطبيق في أحاديث السنن الأربعة الشريفة مبيناً أهم الدلالات التي تنشأ عن التقديم والتأخير بين عناصر تركيب النداء، وأوضح أن لها أثراً في المعنى الدلالي في تركيب الجملة.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٨.

توطـــــئة:

عالج النحويون النداء معالجة شاملة، شملت كل جوانبه، ابتداء من تعريفه، وذكر أدواته، ومواضع استعمالها، وحذفها، ثم تقسيمه تبعا لحكمه الإعرابي، وذكر توابع المنادى، وحكم كل تابع منها حسب نوعية التابع، ثم ذكر الأسماء التي لازمت النداء فلم تبرحه إلى غيره من الأساليب الأخرى، والأسماء التي لا تنادى، والتعليل لذلك، ثم خروج النداء عن معناه الأصلي إلى معان أخر، كالتعجب، والاستغاثة، والندبة والاختصاص، والترخيم، وفي كل قسم من هذه الأقسام أو العناوين تفصيلات وتدقيقات، وخلافات بين النحاة مدعومة بالشواهد، والشواهد المضادة، أما البلاغيون فقد عالجوه بطريقة مخالفة للنحويين، نظرًا لطبيعة النظرة التي ينظرون بها إلى النداء، وطبيعة درسهم البلاغي الذي يُعْنى بمقتضى الحال والمقام، وما تشير إليه القرائن، لذلك لم يُعْنَوْا في معالجتهم بتقسيمات النحويين وتفصيلاتهم، فهم بعد تعريف النداء، وذكر أدواته، ومواضع استعمالها، وحذفها ينتقلون إلى معالجة أغراضه البلاغية ضامين جهودهم إلى جهود النحويين، فأثمرت كشف كثير من الأغراض التي تستفاد من وراء التركيب الندائي. لذلك تجد الفريقين يشيرون في معالجتهم للجملة الندائية إلى هذه الأغراض التي خرج فيها النداء عن أصله ليدلّ عليها كالتعجب والاستغاثة والندبة والاختصاص والترخيم، فهذه الأغراض مشتركة بين الفريقين، ولكن حين خروج التركيب الندائي دلاليًا عن أصله للدلالة على أغراض أخرى، ليست تركيبية بالأصالة، فهنا يكون دور البلاغيين أقوى، فتنطلق جهودهم للبحث وراء التركيب من أحوال وهيئات ومقامات. فكانت النتيجة أن اكتشف البلاغيون أغراضًا عديدة للتركيب الندائي، وجد فيها الكتّاب والشعراء متنفسًا للتعبير، كالتحسر، والتذكر، والحزن، واللوم، والعتاب، والوعد والوعيد، والتهديد والذم، والمدح، والدعاء، والإغراء، والتحريض، وغيرها.

إذن الغرض البلاغي للتركيب الندائي يتحدد من خلال العلاقة التي تنشأ بين المنادي والمنادَى مباشرة بعد إحداث التركيب اللغوي الندائي والتصويت به، فإن كان التعبير الندائي يحمل مقاصد واضحة صريحة تفهم من التركيب اللغوي نفسه للجملة الندائية، من دون اللجوء إلى وسائل أخرى، كان الغرض من النداء حينذاك أصليًا، وهو تنبيه المخاطب أي: المنادى، وتهيئته لاستقبال ما يطلب منه، فيبقى المنادى هنا مشدوهًا للمعاني التي تتبع النداء، لأنها هي المقصودة، أما الجملة الندائية هنا فدلالتها لا تتعدى التنبيه والتهيئة، فهي هنا ذات وظيفة تنبيهية إشارية استحضارية.

إما إن كان التركيب الندائي خارجا عن الأصل بتأخير جملة النداء أو توسطها الجملة التي نودي لها، فيكون التركيب الندائي خارجا عن معناه الأصلي إلى أغراض بلاغية تفهم من السياق، فيمكن التعبير عنه بخروج النداء عن معناه الأصلي، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يي ئج ئح ئخ ئم ئه بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ ﴾[1]، فالنداء في قوله يا إبراهيم تكملة لجملة الإنكار والتعجُّب؛ لأن المتعجَّب من فعله مع حضوره يقصد بندائه تنبيهه على سوء فعله، كأنه في غيبة عن إدراك فعله، فالمتكلم ينزله منزلة الغائب فيناديه لإرجاع رشده إليه، فينبغي الوقف على قوله يا إبراهيم، وجملة «لئن لم تنته لأرجمنك» مستأنفة[2].

لم يتفق النحويون تمامًا على معنى النداء، إذ يعرفه بعضهم وظيفيا، بينما يلجأ آخرون إلى تعريفه انطلاقا من أحواله الإعرابية، والتعريف الذي يمكن إيثاره؛ لجمعه بين

الأمرين، هو ما أورده ابن عقيل، حيث قال: «هو طلب المتكلم إقبال المخاطب بواسطة أحد حروف النداء ملفوظًا كان حرف النداء أو ملحوظًا»[٣].

والنداء في النحو العربي قائم على ثلاثة عناصر، حرف النداء، والمنادى وهو العنصر الثاني في تركيب جملة النداء، وهو الاسم الذي يقع بعد أداة النداء، والأمر المنادى من أجله (جملة النداء)، وهو الذي يحمل الرسالة الموجّهة للمخاطب، وذلك أنّ سبيل المتكلم أن ينادي من يخاطبه؛ ليقبل عليه، ثم يخاطبـــه مخبرًا له، أو مستفهمًا، أو آمرًا، أو ناهيًا، وما أشبه ذلك[٤].

لذا يُصْحَب النداء في كثير من الأحيان بجملة إنشائية كالنهي والأمر، كما يتقدم عليها، فالبنى الندائية عبارة عن تركيب طلبي يتكون من ركنين: ركن التركيب الطلبي + ركن التركيب الجوابي، فتقول: يا أحمدُ لا تهمل دروسك، الركنان: يا أحمد + لا تهمل دروسك، فالركن الطلبي يتطلب ويستدعي جوابًا، وهو الأمر المنادى من أجله.

وظائف النداء وفقا لرتبة عناصره:

فإن كان تعريف المنادى بشكل مجمل، وجعله محط النداء في الجملة من غير أن يحدد موقع هذا المكوّن فيها، فإن التعريف القائل: إنّ المنادى «هو المكون الخارجي الذي يسبق الجملة أو يليها أو يتخللها، مؤشرا بكيفية صحيحة إلى أن الخطاب موجّه إلى الشخص المحال عليه بعبارة النداء»[٥] قد حدد موقع المنادى في الجملة فهو إما أن يسبقها أو يليها أو يتخللها، ومن موقعية المنادى في الجملة أوجد التداوليون للمنادى في النداء المحض، بوصفه فعلاً خطابيًا، وظائف، وهي:

الاسترعاء وهذه الوظيفة تتحقق عندما يستهل المتكلم الخطاب بالنداء المحض، فإنه يقوم بعملية انتقاء للمنادى أو المخاطب الذي ينوي توجيه الكلام إليه، فيكون النداء في بداية الجملة هو وسيلة استرعاء له[٦]، ولم يغب هذا الأمر عن نحاتنا القدامى، فإلى هذا الأمر أشار سيبويه إذ يقول: «واعلم أنه لا يجوز في غير النداء أن تُذهب التنوين من الاسم الأول... ولأن أول الكلام أبدا النداء، إلا أن تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك، فهو أول كلّ كلام لك به تعطف المكلَّم عليك فلما كثر وكان الأول في كل موضع»[٧]، ولا يترك النداء إلا بإقبال المنادَى على المنادِي[٨]، ذلك أن المنادى «مختص من بين أمته، لأمرك ونهيك أو خبرك»[٩]، وهذا يعني أن النداء تخصيص وتنبيه لمن قد يكون معنيا بالكلام بعده سواء كان خبرا أو أمرا أو نهيا[١٠].

– الحفظ والتعيين، وهي الوظيفة الثانية للنداء، وتتحقق هذه الوظيفة حينما يورد المتكلم النداء في ثنايا خطابه، فهو يبغي من ذلك التنبيه على أنه مازال مستمرًا في التواصل مع المخاطب الذي يكون غالبًا قد انتقاه، فيعامل المنادى كما تعامل العبارات الحوافظ الضامنة لاستمرار عملية التخاطب[١١].

– التخصيص والتصحيح، وتتحقق عندما يأتي المنادى بعد تمام الخطاب؛ لأنه يريد به تعيين المخاطب إما بتخصيصه أو تصحيحه، ويحصل ذلك في مقامين، مقام التباس المخاطب أو إمكان تعدّده ومقام الخطأ في انتقائه[١٢]، يقول سيبويه: «قولك: أما أنا فأفعل كذا وكذا أيّها الرجل...، وأردت أن تختص ولا تبهم حين قلت: أيتها العصابة وأيها الرجل، أراد أن يؤكد؛ لأنه قد اختص حين قال أنا، ولكنه أكد كما تقول للذي هو مقبل عليه بوجهه مستمع منصت لك: كذا كان الأمر يا أبا فلان، توكيدا، ولا تدخِل يا ها هنا؛ لأنك لست تنبه غيرك، يعني: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة»[١٣].

فالنداء الواقع في نهاية الكلام في قوله: «كذا كان الأمر يا أبا فلان» غايته التوكيد لا التنبيه؛ لأن المنادى مقبل على المتكلم بوجهه مستمع له، وهذا يعني أن المخاطب أو

المنادى قد تم تعيينه وتحديده مسبقًا، فهو ليس بحاجة إلى التنبيه ولكن بحاجة إلى توكيد هذا التعيين.

إذن يمكن القول إنّ تركيب النداء – وفق ما وضحنا– يكون نحو المعادلة التالية: النـــداء = (حرف النداء + المنادى) + جملة الغرض من النداء (الأمر، الاستفهام، النهي، الخبر).

والغالب في تركيب النداء – إن لم يكن الأصل – أن يتقدم جملة النداء التي تتكون من حرف النداء والمنادى، وهما متلازمان لا يفصل بينهما في سعة الكلام، بل على القلة والندرة كما في قول الشاعر(١٤):

ألا يـــا فابـــكِ شِـــوّالا لطيفـــا وأذري الـــدمع تســـكابًا وكيفـــا

أي: يا لطيفة، فرخمت وفصلت بفعل الأمر وما عداه من عناصر الجملة، ولكن قد يتأخر في أحوال، نحو قوله تعالى: ﴿ لد لخ لد لك مج مح ﴾(١٥)، وقد قرّر البحث أن يكون البدء بجملة النداء هو الأصل؛ لأنّ أصل النداء تنبيه، فقد سمّى سيبويه الباب الذي تحدّث فيه عن أحرف النداء بـــ «باب الحروف التي ينبّه بها المدعوُّ»(١٦)، ويرى ابن يعيش أن «أصل النداء تنبيه المدعوّ؛ ليقبل عليك، وتؤثر في الندبة والاستغاثة والتعجب، وهذه الحروف لتنبيه المدعوّ»(١٧)، كما نصّ الأستراباذي على أن «النداء تنبيه»(١٨)، ويرى في موضع آخرَ أن النداء مع كثرته في الكلام ليس مقصودًا بالذات، بل هو لتنبيه المخاطب؛ ليصغي إلى ما يجيء بعده من الكلام المنادى له»(١٩).

فلما كانت أحرف النداء من جملة حروف التنبيه، كان لها الصدارة في التركيب، فمعظم عناصر التنبيه في اللغة العربية تأتي في أوّل الكلام، فقد نصّ المبرد على ذلك، حيث يقول: «التنبيه يقع قبل ما نبهت عليه»(٢٠)، فهو يضع أصلاً من أصول التراكيب في اللغة العربية، ويقرّر مظهرًا من مظاهر الموقعية في هذه اللغة(٢١).

ولعلّ هذا ما أشار إليه ابن يعيش في قوله: «ولكنهم جعلوا في أول الكلام حرف النداء، وهو قولهم «يا»؛ ليفصلوا بين الخطاب الذي ليس بنداء، وبينه، ويخاطبوا بذلك القريب والبعيد»(٢٢)، وكذلك نصّ الأستراباذي على أنّ «كل ما يغير معنى الكلام، ويؤثر في مضمونه، وكان حرفًا، فمرتبته الصدر، كحروف التنبيه»(٢٣).

وممّا يؤكد أنّ جملة النداء لها الصدارة، أنه يجوز لنا تأخير جملة النداء وبها ضمير يعود على جملة الجواب، كقولنا: صُنهما يا أبا الولدين، ففي قولنا: «صنهما» ضمير يعود على الولدين، ممّا يؤكد أنّ الضمير عاد على متأخر لفظا متقدم رتبة.

وبذلك يكون تصدير التركيب الندائي بالنداء أصلا من أصول التركيب في اللغة العربية، ومظهرًا من مظاهر الموقعية فيها.

التقديم والتأخير في تركيب النداء في أحاديث السنن الأربعة:

لعل من أهم الموضوعات المشتركة بين علمي النحو والبلاغة هو التقديم والتأخير فقد تناوله النحويون والبلاغيون، كلٌّ تناوله حسب زاوية رؤيته وحسب الأهداف التي يريد تحقيقها من تناوله موضوع التقديم والتأخير، إذ إن النحاة بحثوا هذا الأسلوب في حدود الصحة والخطأ، والجمال أحيانًا، في حين كشف البلاغيون عن كثير من قيم الجمال فيه، ولكن تراث العربية واحد، وجهود علمائه تتكامل ولا تتفاضل، والوعي بعبقرية هذه اللغة، وإدراك أسرارها لا يمكن الوقوف عليه إلا من خلال رؤية شاملة تعتدّ بكل جهد يتناول

الدرس اللغوي.

وهذا عرض للأحاديث التي جاءت وجملة النداء في بداية التركيب، مكتفين بأمثلة قليلة تبين، دلالة تقديم جملة النداء في أول التركيب؛ لكون هذا هو الأصل إذا ما عددنا النداء من أدوات التنبيه، التي لها الصدارة في التركيب، ثم نعرض للأحاديث التي خالفت هذا الأصل.

- **عن بشير ابن الخصاصيّة، أنّ رسول الله e، رأى رجلا يمشي بين المقابر في نعليه، فقال: {يا صاحب السبتيتين ألقهما}**(٢٤).

جاء هذا التركيب على الأصل، فبدأ بجملة النداء ثم ثنّى جملة الجواب، والمعنى ليس خاصا بالسبتيتين، بل هو عام في جميع النعال، وبدأ بالنداء المضاف إلى السبتيتين، لتنبيه ذلك الرجل إلى النعل التي كانت عليه، فيعرف أنه المقصود، ثمّ أمره بخلعهما.

- **عن ابن الشِّخِّير، قال: سمعت عثمان بن أبي العاص، يقول: كان آخر ما عهد إليّ النبي e حين أمّرني على الطائف، قال لي: {يا عثمانُ تجاوز في الصلاة، واقدر النـــاس بـــأضعفهم، فإن فيهم الكبير، والصغير، والسقيم، والبعيد، وذا الحاجة}**(٢٥).

هذا التركيب أيضا جاء على الأصل، بتقديم جملة النداء، لأن المراد تنبيه عثمان بن أبي العاص، واسترعاؤه، فكأنما يريد e الإخبار بأنه قد انتقى عثمان ليكون أميرًا للطائف، فكان الخطاب بتقديم النداء للاسترعاء؛ليوافق ذلك المعنى.

- **عن ثوبان، أن رسول الله e، كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاث مرات، ثم يقول: {اللهمّ أنت السلامُ، ومنك السلامُ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام}**(٢٦).

في هذا النصّ الشريف، خرج التركيب الندائي عن أصله، فتقدمت جملة الجواب، المبينة للغرض من النداء، على جملة النداء، إذ الأصل يمكن أن يكون: يا ذا الجلال والإكرام تباركت، وهذا التأخير إنما هو زيادة في التوكيد، فالمنادى عزّ وجلّ لا يحتاج إلى تنبيه أصلاً، كما أنّ معناه: تعاظمت إذ كثرت صفات جلالك وكمالك، وتعاظمت وتعاليت، يا من يستحق الجلال يدلّ دلالة بيّنة أن من أغراض تقديم جملة الجواب على جملة النداء، التنبيه للمسلمين في دعائه e، كما أن في التقديم غرضًا لفظيًّا وهو تناسق نهاية الجمل.

- **عن معاذ بن جبل، أنّ رسول الله أخذ بيده، وقال: {يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك}، فقال: {أوصيك يا معاذ، لا تدعنّ في دبر كل صلاة تقول: اللهمّ أعنّي على ذكرك، وشكرك وحسن عبادتك}**(٢٧).

هذا النصّ الشريف، ممّا تداخلت فيه التراكيب، وتعددت في الشاهد الواحد، ممّا يدلّ على أنّ لها أغراضًا دلالية ترتبط بمشاعر النفس البشرية الكامنة في المنادي أو بمراعاة حال المنادى، حيث جاء في الحديث الشريف، تركيبان ندائيان، الأوّل تقدمت فيه جملة النداء، وهو قوله: **{يا معاذ، والله إني لأحبك}**، والآخر تقدمت فيه جملة الجواب على جملة النداء، وهو قوله: **{أوصيك يا معاذ}**، حيث استهلّ e الخطاب في التركيب الأوّل بالنداء، ليقوم بعملية انتقاء للمنادى، الموجّه له النداء، فكان النداء في بداية الجملة؛ وسيلة استرعاء له.

أما في التركيب الآخر، فقد كانت الغاية التخصيص، للتوكيد، لا للتنبيه؛ لأن المنادى في حالة إصغاء للمنادي، مستمعٌ له، إذ تمّ تعيينه مسبقا، فهو ليس بحاجة للتنبيه والتعيين، ولكن في حاجة إلى توكيد هذا التعيين، وهناك دلالة أخرى وهي اهتمامه e بالإيصاء الذي جاء مباشرًا بعد تبيين محبته e لمعاذ، فالإيصاء يكون عادة لمن تحبّ،

فكأنه خصّه بهذه الوصية، فقدمه أول التركيب.

- **عن جابر قال: صلى معاذُ بن جبل الأنصاريّ بأصحابه صلاة العشاء، فطوّل عليهم، فانصرف رجلٌ منّا فصلّى، فأخبر معاذٌ عنه، فقال: إنه منافق، فلما بلغ ذلك الرجلَ، دخل على رسول الله e، فأخبره ما قال له معاذ، فقال النبي e: {أتريد أن تكون فتانا يا معاذُ؟ إذا صليت بالناس، فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، والليل إذا يغشى، واقرأ باسم ربك}**[٢٨].

الرسول e، مع توبيخيه لمعاذ كان لطيفا ورفيقا به في خطابه، فقال: أتريد أن تكون فتانا يا معاذ؟ لم يثبت له صفة الفتنة، بمعنى أن هذا الفعل لا يصدر إلا عن الفتانين، وهي أثبت في باب الافتتان وأرسخ، لأن الإنسان قد يفعل الفعل ولا يقصده؛ لأسباب تدعو إليه من إكراه أو سهو أو جهل به أو ظن جوازه أو غير ذلك من الأسباب التي تبعث على إيجاد الفعل والقول من غير إيثار له، ويمكن القول إنّ أصل التركيب: يا معاذُ، أتريد أن تكون فتانًا، ولكنه عدل e، فقدم جملة الجواب على جملة النداء، للمبالغة في الزجر، لما يوقع الناس في الفتنة والمعصية بترك الجماعة والتفرُّق بينهم، فكان التقديم أبلغ في الإنكار والزجر، وتنبيهه إلى أن هذا الصنيع يؤدي إلى الفتنة التي يخشاها كل إمام ومؤمن.

- **عن عبدالله بن مسعود، عن النبي e، قال: {إنّ الله وترٌ يحبُّ الوتر، أوتروا يا أهلَ القرآن}**[٢٩].

يجوز في هذا التركيب أن تتقدم جملة النداء «يا أهل القرآن» على جملة الجواب «أوتروا»، فيكون يا أهل القرآن أوتروا، ولكن لمّا كان السياق خاصّا بالوتر، قدّم جملة الجواب التي تأمر بذلك؛ للعناية والاهتمام، ولبيان فضله لم يفصل بين الإخبار بمحبة الله تعالى الوترَ، والأمر به.

- **عن أبي هريرة، أنّ النبي e كان في جنازة، فرأى عمرُ t امرأة، فصاح بها، فقال النبي e: {دعها يا عمرُ، فإنّ العين دامعة، والنفس مصابة، والعهد قريب}**[٣٠].

تقدمت جملة الجواب «دعها»، على جملة النداء، فأصل التركيب يا عمرُ دعها، فدلالة التقديم على أن الرسول e قد تأثر بمصاب المرأة، فبادر بأمر سيدنا عمر t أن يدعها، لما في بكائها من أثر في نفسها، فكان الاهتمام بتركها تصيح، لأنه موضع الحديث.

- **عن عائشة قالت: كان النبيّ e يتعوذ بهؤلاء الكلمات {أذهبِ البأسَ، ربَّ الناس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاءً لا يغادر سقما}**[٣١].

فقد بدأ الرسول e التركيب بجملة الجواب «أذهب البأس» متقدمة على جملة النداء «ربَّ الناس» للاستئناس، فكأنه e أراد أن يطمئن المريض بذهاب شدته، فبدأه بالدعاء بإبعاد البأس، ثم جاء بجملة النداء، وكذلك في تقديم هذه الجملة بدء بمساولة المريض، ومعاودته واستعجال الشفاء له.

- **عن عبدالله بن الزبير، أنّ رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله e في شراج الحرَّة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرّح الماء يمرّ، فأبى عليه، فاختصما عند رسول اللهe ، فقال رسول الله e: {اسق يا زبيرُ، ثمّ أرسل الماء إلى جارك}، فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله أن كان ابنَ عمتك؟ فتلوّن وجه رسول الله e، ثم قال: {يا زبيرُ اسق، ثمّ احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر}**[٣٢].

هذا الحديث ممّا تداخلت فيه التراكيب، وتنوّعت، فقد جاء فيه تركيبان ندائيان، الأوّل جاء خلاف الأصل، وهو قوله: اسق يا زبيرُ، تقدمت فيه جملة الجواب على جملة النداء، والآخر جاء على الأصل وهو قوله: يا زبيرُ اسق، وهو من الأحاديث التي استوقفتني، فنبهتني إلى التقديم والتأخير في التركيب الندائيّ، وما صاحبه من انفعالات نفسية دلّ عليها ذلك العدول، ففي قوله: اسق يا زبير تقدمت جملة الجواب وهو الأمر بالسقي، لأنه موضوع الحديث فكان سبب الاختصام بين الرجلين، واهتمامهما، فقدم الرسول للعناية والاهتمام، فهو لا يريد تنبيه الزبير، بل أصدر حكمًا، أمّا في التركيب الثاني، فقد جاء على الأصل ليبين أن الرسول e لمّا غضب من قول الأنصاريّ، فأراد أن ينبه زبيرًا، على أن الحكم تغيّر، فبدأ بما يدل على التنبيه وهو النداء.

- **عن ابن عبّاس، أنّ رسول الله e، قال: {ما مررت ليلة أسري بي بملإ من الملائكة إلاّ كلّهم يقول لي: عليكَ يا محمدُ، بالحجامة}**(٣٣).

جاء المنادى في ثنايا التركيب، حيث تأخر ففصل بين اسم الفعل «عليك»، ومعموله بالحجامة، فأصل التركيب: يا محمدُ عليك بالحجامة، بأن يتقدم التركيب جملة النداء، كما في قوله تعالى: ﴿ ذُ رِ ىٰ ﴾(٣٤)، إنما كان تقديم «عليك»، لما فيها من دلالة على إلزام الأمر إلزاما مؤكدا، ففائدة أسماء الأفعال الدالة على الطلب هي المبالغة والتوكيد، فكلمة «عليك» أبلغ من الزم؛ لما فيه من الاختصار والسرعة، قال ابن يعيش: «والغرض منها الإيجاز والاختصار ونوع من المبالغة... ووجه الاختصار فيها مجيئها للواحد والواحدة والتثنية والجمع بلفظ واحد، وصورة واحدة... وأما المبالغة فإن قولنا «صه» أبلغُ في المعنى من اسكت وكذلك البواقي»(٣٥)، ومبالغة الملائكة في الإلزام لما عرفوا فيها من منفعة تعود إلى الأبدان، وللدلالة على عظيم فضلها وبركة نفعها، قدّمت جملة الجواب «عليك» زيادة في التوكيد، فجاءت جملة النداء؛ زيادة في التعمية.

- **عن عائشة أمّ المؤمنين، قالت: أهدى النجاشي إلى رسول الله e حلقة فيها خاتم ذهب فيه فصٌّ خشبي، فأخذه رسول الله e بعُودٍ، وإنّه لمعرضٌ عنه، ثم دعا بابنة ابنته أمامة بنت أبي العاص، فقال: {تحلّي بهذا يا بُنية}**(٣٦).

«تحلي» جملة الجواب، تقدمت على جملة النداء «يا بنيّة»، ويمكن القول إن أصل التركيب: يا بنيّة تحلّي بهذا، إنما قدّم ليدل من بداية الحديث على أن هذا حلية، تستعمله النساء، فقدم ما يدل على ذلك، وهو الأمر بالتحلية، وهو سبب عدم إعجاب الرسول e به، فهو بالنسبة للرجال لا يصلح.

- **عن عائشة قالت: بال رسول الله e، فقام عمر خلفه بكوز من ماء، فقال: {ما هذا يا عمر؟}، فقال: هذا ماء تتوضأ به، قال: {ما أمرت كلما بلت أن أتوضأ، ولو فعلت لكانت سنّة}**(٣٧).

إنّ الأصل هو أن تتصدر جملة النداء التركيبَ، وهذا ما يستعمله e في أكثر أحاديثه، والتقديم دلالة على أن الرسول e كان مندهشًا من صنيع سيدنا عمر فبادر بالسؤال، فعمر t كان مقبلا مستمعا للرسول e، فلا يحتاج إلى تنبيه بمناداته، لذا أُخرت جملة النداء.

- **عن الحارث بن عَتيك، أن رسول الله e جاء يعود عبدالله بن ثابت، فوجده قد غُلب، فصاح به رسول الله e، فلم يجبه، فاسترجع رسول الله e وقال: {غُلبنا عليك يا أبا الربيع}**(٣٨).

تقدمت جملة الجواب، غلبنا عليك، على جملة النداء يا أبا الربيع، للتحسُّر والتأسُّف، فالمنادى لا يحتاج للتنبيه؛ لموته، فلم يقدم جملة النداء، والتقدير كما قال السندي: إنّ الله تعالى غالب علينا في موتك، وإلا فحياتك محبوبة لدينا؛ لجميل سعيك في الإسلام والخير(٣٩).

- **عن أنس بن مالك، أنّ رسول الله e، قال: {تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربَّنا، إنّا بك يا إبراهيم لمحزونون}(٤٠).**

أراد إنّا بفراقك، وفي هذا الحديث، وقع الخطاب للغير، وإرادة غيره بذلك، وكل منهما مأخوذ من مخاطبة النبي e ولدَه، مع أنه في تلك الحالة لم يكن ممن يفهم الخطاب؛ لوجهين: أحدهما: صغره، والآخر: نزعه، وإنما أراد بالخطاب غيره من الحاضرين(٤١)، وقد نادى ابنه؛ تصويرًا لعظيم موقعه في القلب كأنه مخاطب، ويمكن القول إن حرف النداء هنا ليس للخطاب، فقد يكون اختصاصا أو ندبا، وقد جاءت جملة النداء في ثنايا التركيب، ففصلت مع متعلق خبر إنّ بين اسمها وخبرها، وأصل التركيب يمكن أن يكون: يا إبراهيم إنّا لمحزونون بك، وفي التقديم تظهر دلالات، أولا في تقديم «إنّا» توكيد وفيه أنّ الحزن عمّ الجميع، وتقديم «بك»؛ للاختصاص، أي: ما أحزنا إلا فراقك، وقوله: يا إبراهيم، للتوكيد على من بسبب موته عمّ الحزن، ففي تأخير جملة النداء تظهر شدة حزن الرسولe بذكر اسم ابنه، إذ يمكن الاستغناء عنه، بذكر ما يعود عليه وهو قوله «بك».

- **عن عليّ t، ما رأيت رسول الله e جمع أبويه لأحد غير سعد بن مالك، فإنه قال له يوم أحد {ارْمِ سعدُ، فداك أبي وأمّي}(٤٢).**

في هذا التركيب جاء المنادى «سعد» في ثنايا الخطاب، فتقدمت عليه جملة الجواب، وهو الأمر بالرمي «ارمِ»، ويمكن أن يقال: إن أصل التركيب سعدُ ارمِ فداك أبي وأمي، فالتقديم للعناية والاهتمام، فقدم للاستعجال بالرماية، لأنها هي مقصد الحديث، كما أنه e يبغي بذلك التنبيه على أنه مازال مستمرًا في التواصل مع المخاطب «سيدنا سعد»، الذي كان قد انتقاه مقبل هذا التركيب، فلذا قدّم جملة الجواب على جملة النداء.

- **عن سعيد بن زيد، قال: سمعت رسول الله e، يقول: {اثبُتْ حِراءُ، فما عليك إلا نبيّ، أو صديق، أو شهيد}(٤٣).**

هنا الرسول e ينادي، مخاطبا جبل حراء وهو بمكة على ثلاثة أميال، كان يتعبد فيه e قبل البعثة، وقوله: فما عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيد، فالصديق سيدنا أبوبكر، والشهيد سيدنا عمر، والحكمة في ذلك أنه لما أرجف أراد النبي e، أن يبين أن هذه الرجفة ليست من جنس رجفة الجبل بقوم موسى عليه السلام لما حرفوا الكلم، فتلك رجفة الغضب، وهذه هزة الطرب؟ لهذا نص على النبوة والصديقية والشهادة، التي توجب سرور ما اتصلت به لا رجفانه(٤٤) و«حراء» منادى حذفت أداته، أي: يا حراء، ونداؤه وخطابه يحتمل المجاز ويحتمل الحقيقة، كقوله تعالى: ﴿**أظم عج عم غج غم فج**﴾(٤٥)، وقيل: وجه تخصيصه بالذكر لتحركه به سرورًا، لما رقى عليه مع أصحابه، وقد تقدمت جملة الجواب، وهي «اثبت» على جملة النداء المحذوف فيها حرف النداء «حراء»، وذلك لاهتمامه e بثبات حراء وسكونه، لأنه مقصد الحديث، ثمّ أنه لابدّ أن يثبت الجبل، ثمّ يخاطبه e، لذا أمره بالثبات؛ للاستعجال، ثم خاطبه.

- **عن عائشة رضي الله عنها، قالت دُعي رسول الله e إلى جنازة غلام من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يعمل السوء، ولم يدركه، قال: {أوَ غيرُ ذلك يا عائشةُ! إنّ الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم}**(٤٦).

ومهما يكن من أمر فإن في التركيب تقديما لجملة الجواب على جملة النداء، ويمكن القول إن أصل التركيب: يا عائشة أو غير ذلك!، وإنما قدّم؛ ليستدرك ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها، لينهاها عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عندها دليل قاطع على ذلك، فاستدرك متعجبا؛ ليبين لها من بداية الحديث أن أولاد المسلمين ليسوا جميعا في الجنة.

- **عن عليّ t، قال، قال رسول الله، e: {أبوبكر وعمر سيّدا كُهُول أهل الجنة من الأوّلين والآخرين، إلا النبيين والمرسلين، لا تخبرهما يا عليُّ ما داما حيّين}**(٤٧).

(لا): ناهية، (ما داما): ما مصدرية، أي: مدة دوامهما في الدنيا، قال السندي – رحمه الله– ذُكر لإفادة التأبيد؛ لئلا يظنّ تخصيص النهي بالحال، وإلا فلا يتصور الإخبار بعد الموت(٤٨)، وأصل التركيب: يا علي لا تخبرهما ماداما حيين، فجاء الخطاب في ثنايا الكلام، فتأخرت جملة النداء على جملة الجواب «لا تخبرهما»، فلما كان مقصد الحديث هو النهي عن الإخبار، قدمه للعناية والاهتمام، ولا يريد التنبيه، فالمخاطب قد انتقاه e مسبقا.

الخاتمة:

ومما سبق يتبين لنا أن أسلوب النداء ورد كثيرا في أحاديث السنن الأربعة؛ ومردّ ذلك أن خطاب الرسول الكريم هو خطاب وعظيّ، ويتخذ من أسلوب النداء وبقيّة الأساليب الإنشائية بابا واسعًا؛ لتقرير المعاني والزيادة والإيضاح، وقد جاءت تراكيب النداء في هذه الأحاديث متنوعة، وإن كادت تقتصر على حرف النداء «يا» وقد يكون محذوفا، فقد جاءت التراكيب مصدّرة بجملة النداء، وقد تأتي جملة النداء في ثنايا التركيب فيتوسط النداء عناصر التركيب الأخرى، وتأتي آخرَ التركيب، وكلُّ ذلك له دلالة يدلّ عليها العدول بالتقديم والتأخير، وقد حاول الباحث استخراجها وتبيينها في هذا المبحث بالاكتفاء ببعض النماذج في هذه الأحاديث، وقد كان اختيار النماذج متنوعًا بتنوّع المنادى، وقد كانت أهم الدلالات تدلّ على التنبيه، والتشويق، والاستدراج، والتقرير، والعناية والاهتمام، والاسترعاء، والحفظ والتعيين، وغيرها من الدلالات.

Abstract

"Submitting & Delaying in Appealing Method"
A Study of Synthetic Significance in the four Hadiths of the Sunnah
By Essa otman mohmed

This research deals with the issue of the appeal, namely, "The Submission and delay between ths elements on which ti is based: "The letter of calling and the called one" and the command calling for it "The phrase of the appeal". The Research may Follow this issue through analysis and applying in the four Hadiths of the Sunnah indicating the most important indications that arise from submitting and delaying among the elements of calling composition, and it has an effect on the semantic meaning in the syntax of the sentence.

الهوامش:

(١) مريم ٤٦/١٩
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١١٩/١٦، وينظر: المجتبى من مشكل إعراب القرآن، ١٠١٤/٣
(٣) حاشية الخضري على ابن عقيل ١٦٦/٢.
(٤) ينظر: النداء بين التداولية وآراء النحاة والبلاغيين العرب القدماء، ص ٢٧٠
(٥) مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، ص ١٠٥
(٦) نفسه، ص ١٠٦
(٧) الكتاب ٢٠٨/٢
(٨) نفسه ٢٠٨/٢
(٩) نفسه ٢٣١/٢، ٢٣٢
(١٠) ينظر: الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، ص ١٦٣
(١١) ينظر: مسائل النحو العربي في قضايا الخطاب الوظيفي: ص ١٠٦
(١٢) ينظر: نفسه ١٠٦
(١٣) الكتاب ٢٣٢/٢
(١٤) البيت من (الوافر)، وهو لجدابة بنت خويلد النخعية، تخاطب أمَتها لطيفة، ينظر: شرح التسهيل ٣٩٠/٣، الدرر ٢٧/٣، الهمع ٤٤/٢.
(١٥) النور ٣١/٢٤
(١٦) الكتاب ٢٢٩/٢
(١٧) شرح المفصل ٥١/٥
(١٨) شرح الكافية ٣٤١/١
(١٩) نفسه ٣٧٤/١
(٢٠) المقتضب ٢٢٣/٢
(٢١) ينظر: حق الصدارة في النحو العربي بين النظرية والتطبيق، ص ١١٨، ١١٩.
(٢٢) شرح المفصل ٥١/٥
(٢٣) شرح الكافية ٤٣٣/٤
(٢٤) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [١٥٦٨]، وأبو داود، بلفظ: يا صاحب السبتتين ويحك ألقهما [٣٢٣٠] والنسائي [٢٠٤٨]
(٢٥) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٩٨٧].
(٢٦) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٩٢٨]، وأبوداود [١٥١٢]، والترمذي [٣٠٠]، والنسائي [١٢٦١]
(٢٧) أخرجه أبوداود، رقم الحديث [١٥٢٢]، والنسائي [٩٨٥٧]
(٢٨) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٩٨٦]، والنسائي [٩٩٨]

(٢٩) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [١١٧٠]
(٣٠) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [١٥٨٧]
(٣١) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [١٦١٩]، [٣٥٢٠]، وأبوداود [٣٨٨٣]، [٣٨٩٠]، والترمذي [٩٧٣]، والنسائي [٧٤٦٦]
(٣٢) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [١٥]، [٢٤٨٠]، وأبوداود [٣٦٣٧]، والترمذي ١٣٦٣]، والنسائي [٥٤٠٧].
(٣٣) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٣٤٧٧]
(٣٤) المائدة/١٠٥.
(٣٥) شرح المفصل: ٤/٣، ٣.
(٣٦) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٣٦٤٤]، وأبو داود [٤٢٣٥]
(٣٧) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٣٢٧]، وأبوداود [٤٢]
(٣٨) أخرجه أبوداود، رقم الحديث [٣١١١]، والنسائي [١٨٤٦]
(٣٩) حاشية السندي ١٣/٤،
(٤٠) أخرجه أبوداود [٣١٢٦].
(٤١) ينظر: فتح الباري ١٧٤/٣.
(٤٢) أخرجه أبن ماجه [١٢٩]، [١٣٠]، والترمذي [٣٧٥٥].
(٤٣) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [١٣٤]، وأبوداود [٤٦٤٨]، والترمذي [٣٦٩٩]، [٣٧٥٧].
(٤٤) ينظر: فتح الباري ٢٠٧/٧، وإرشاد الساري ٩٧/٦.
(٤٥) هود/٤٤
(٤٦) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٨٢]، وأبو داود [٤٧١٣]، والنسائي [١٩٤٧]
(٤٧) أخرجه ابن ماجه، رقم الحديث [٩٥]، والترمذي [٣٦٦٥].
(٤٨) ينظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه ٥٠/١، وينظر: مشارق الأنوار ٥٥/٣.

المصادر والمراجع

- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، تأليف: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (تـــ٩٢٣)، ط٧، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر ١٣٢٣هـ.
- الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية، الدكتور خالد ميلاد، ط١، ٢٠٠١م المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، جامعة منوبة، كلية الآداب، منوبة – تونس.
- التحرير والتنوير "المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، ١٩٨٤هـ، الدار التونسية للنشر، تونس.
- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الفكر للطباعة والنشر، د.ت، ط، ن.
- حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، تأليف: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي (تـــ١١٣٨هـ)، دار الجيل، بيروت د.ط.
- حقّ الصدارة في النحو العربي بين النظرية والتطبيق، الدكتور عزمي محمد عيال بركات، ط١، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان الأردن ٢٠١١م.
- الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع، تأليق: أحمد بن الأمين الشنقيطي، وضع حواشيه: محمد باسل عيون السود، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- سنن ابن ماجه، سنن ابن ماجه، بترقيم الشيخ: محمد فؤاد عبدالباقي، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، دار المودّة للنشر والتوزيع، المنصورة، دار الدليل للنشر والتوزيع، المنصورة، رقم الحديث، [٤١٧٠]، والترمذي، سنن الترمذي، موافقة لطبعة الشيخ أحمد شاكر، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، دار المودّة للنشر والتوزيع، المنصورة، دار الدليل للنشر والتوزيع، المنصورة.
- سنن أبي داود، بترقيم الشيخ محمد محيي الدين عبدالحميد، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، دار المودّة، المنصورة، دار الدليل، المنصورة.
- سنن الترمذي، موافقة لطبعة الشيخ أحمد شاكر، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، دار المودّة للنشر والتوزيع، المنصورة، دار الدليل للنشر والتوزيع، المنصورة.

- شرح التسهيل المسمّى (تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد)، لمحبّ الدين الحلبي المعروف بناظر الجيش، دراسة وتحقيق: أ.د علي محمد فاخر وآخرين، ط١، ١٤٢٨هـ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة – مصر.
- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، للرضي الأستراباذي، تحقيق: حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، يحيى بشير مصطفى، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٦٦م، نشر: جامعة الإمام محمد بن سعود.
- شرح المفصل، لابن يعيش، قدم له: د. إميل بديع يعقوب، ط١، ١٤٢٢/٢٠٠١م، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان.
- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، تأليف: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (تـــ٨٥٥هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمود فؤاد عبدالباقي، قام بإخراجه وصحّحه وأشرف على طبعه: محبّ الدين الخطيب، عليه تعليقات عبدالعزيز بن باز، ١٣٧٩هـ، دار المعرفة، بيروت.
- الكتاب، سيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- المجتبى سنن النسائي، أبو عبدالرحمن النسائي، طبعة مخرجة على الكتب الستة، ومسند الدارمي، وموطأ مالك، ومسند أحمد بن حنبل، وموافقة للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، وأحكام الشيخ الألباني، بترقيم الشيخ: أبي غدة، دار المودة، المنصورة، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- المجتبى من مشكل إعراب القرآن، تأليف: أ.د أحمد بن محمد الخرّاط، ١٤٢٦هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.
- مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي، د. أحمد المتوكل، ط١، ٢٠٠٩م، دار الكتاب الجديد المتحدة.
- مشارق الأنوار الوهّاجة ومطالع الأسرار البهّاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه، تأليف: محمد بن علي بن آدم بن موسى، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، دار المغني، الرياض – المملكة العربية السعودية.
- المقتضب، للمبرد، تحقيق: محمد عبدالخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
- النداء بين التداولية وآراء النحاة والبلاغيين العرب القدماء، د. أسيل سامي أمين، جامعة القادسية، كلية الآداب، مجلة دراسات إسلامية معاصرة، العدد السادس، السنة الثالثة، ٢٠١٢م.
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبدالحميد هنداوي، المكتبة التوقيفية، مصر.